

الفصل الثالث

موقف الإمام القرافي من أهل الكتاب

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مداخل.

المبحث الثاني: جهود الإمام القرافي في الرد على اليهود.

المبحث الثالث: جهود الإمام القرافي في الرد على النصارى.

المبحث الأول

مداخل

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: أهل الكتاب مفهوم وتحديد.

المطلب الثاني: منهج القرآن الكريم في مناقشة أهل الكتاب.

المطلب الثالث: طريقة أهل الكتاب في الطعن على الإسلام «دين - كتاب - رسول».

المطلب الرابع: منهج الإمام القرافي في مناقشة أهل الكتاب.

المطلب الخامس: القرافي بين التأثير والتأثر.

المطلب الأول أهل الكتاب مفهوم وتحديد

جمهور العلماء على أن المراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى، ليس غير، وأنه إذا أطلق لفظ أهل الكتاب انصرف إليهم، فهو كالعلم بالغلبة عليهم.

يقول الإمام الرازي: في تفسير قول الله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ١١٣]، في المراد بأهل الكتاب قولان:

القول الأول -وعليه الجمهور-: «أن المراد بأهل الكتاب الذين آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام»^(١).

وذكر الإمام الشافعي: أن المراد بأهل الكتاب هم بنو إسرائيل الذين أنزلت عليهم التوراة والإنجيل^(٢).

ويذهب الأحناف إلى غير ذلك؛ إذ يرون أن كل أمة تؤمن بنبي من الأنبياء، وبكتاب من الكتب الإلهية تعد من أهل الكتاب، وليس كونها من اليهود والنصارى شرطاً في ذلك، فلو كانت أمة من الأمم تؤمن بصحف إبراهيم -عليه السلام- أو الزبور؛ لكانت هذه الطائفة من أهل الكتاب^(٣).

يقول الإمام الزيلعي: «واعلم أن من اعتقد ديناً سماوياً، وله كتاب منزل كصحف إبراهيم، وشيث وزبور داود، فهو من أهل الكتاب»^(٤).

(١) التفسير الكبير (٨/ ١٦٤).

(٢) ينظر: الأم، للشافعي (٨/ ٥)، دار الفكر. بيروت. بدون تاريخ.

(٣) الحوار بين المسلمين وأهل الكتاب، د. ماجد عبد السلام (ص ٢٨)، ط/ ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

(٤) حاشية رد المختار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار، لابن عابدين (٣/ ٥٠)، دار الفكر، بيروت، ط/ ١٤١٥هـ. ١٩٩٥م.

وهذا الرأي مال إليه الشهرستاني، إذ اعتبر أن المجوس من أهل الكتاب؛ لأن صحف إبراهيم كانت منزلة عليهم، ثم رفعت لأحداث أحدثها المجوس، ولهذا يجوز عقد العهد، والذمام معهم^(١).

وهذا هو الرأي الثاني الذي ذكره الإمام الرازي في المراد بأهل الكتاب^(٢).

لكن الراجح: أن المراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى؛ لقول الله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [١٥٦] أن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿[الأنعام: ١٥٥، ١٥٦].

يقول ابن قدامة: «فأهل الكتاب: اليهود والنصارى، ومن دان دينهم... ومن عدا هؤلاء من الكفار فليس من أهل الكتاب، بدليل قول الله تعالى: ﴿أن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ [الأنعام: ١٥٦]»^(٣).

ولذلك: إذا أطلق هذا اللفظ في القرآن الكريم لم يرد به إلا اليهود والنصارى.

(١) الملل والنحل، للشهرستاني (٢٠٨/١)، شركة مكتبة ومطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر، ط/ ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.

(٢) التفسير الكبير (١٦٤/٨).

(٣) المغني، لأبي عبد الله محمد بن قدامة (٥٥٨/١٠)، دار الفكر. بيروت، ط/ الأولى، ١٤٠٥ هـ.

يقول الشهرستاني: «أهل الكتاب: الخارجون عن الملة الحنيفية، والشرعية الإسلامية ممن يقول بشرية وأحكام وحدود وأعلام، وهم قد انقسموا إلى قسمين: من له كتاب محقق، مثل: التوراة، والإنجيل، وعن هذا يخاطبهم التنزيل بأهل الكتاب، وإلى من له شبهة كتاب مثل: المجوس والمانوية»^(١).



(١) الملل والنحل: (١/٢٠٨).

المطلب الثاني

منهج القرآن الكريم في مناقشة أهل الكتاب

احتوى القرآن الكريم أفضل الأساليب، وأحكم المناهج، وأقوى الحجج في جداله مع أهل الكتاب، وما ذلك إلا لأنه «اشتمل على جميع أنواع البراهين والأدلة، وما من برهان ودلالة، وتقسيم، وتحذير، يبنى من كليات المعلومات العقلية والسمعية، إلا وكتاب الله قد نطق به، لكن أورده على عادة العرب دون دقائق المتكلمين»^(١).

والقرآن الكريم في حوار مع أهل الكتاب دار في محورين:

الأول: أنه بين أهداف حوارهم معهم.

والثاني: أنه انتهج مناهج اعتمدها في حوارهم معهم.

أولاً: أهداف محاوره القرآن الكريم لأهل الكتاب:

١- الحوار معهم لأجل دعوتهم إلى الإسلام بإقامة الحجة عليهم، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ أَشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وقد أرسل الرسول ﷺ الكتب إلى ملوك أهل الأرض - ومنهم أهل الكتاب
تلبية لأمر الله تعالى - يدعوهم إلى الإسلام^(٢).

٢- الحوار معهم لبيان ما هم عليه من الباطل، سواء بإثبات تحريفهم

(1) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي (ص ٤٨٩)، دار مصر للطباعة، بدون تاريخ.
(2) الحوار مع أهل الكتاب، أسسه ومناهجه في الكتاب والسنة د. خالد عبد الله القاسم، دار/ المسلم، الرياض. ط/ الأولى، ١٤١٤ هـ.

لكتبهم، أو انحرافهم عن مناهج الأنبياء، أو إشراكهم بالله تعالى؛ وذلك لإقامة الحجة عليهم، ولاظهار باطلهم للمؤمنين؛ ليحذروا منه ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

وإذا تبين باطلهم قامت الحجة عليهم، وكان دافعاً لهم للتوجه إلى الإسلام^(١)، والآيات القرآنية المبينة لانحراف أهل الكتاب كثيرة، وسيرد كثير منها في مناهج محاوراة القرآن الكريم لهم.

٣- الحوار معهم للرد على شبهاتهم، وطعنهم في الإسلام؛ ليظهر الحق، ويدحض الباطل، وقد اهتم القرآن الكريم بهذا الهدف فذكر شبهات الكفار من أهل الكتاب، ورد عليها بأوضح برهان، وهذا من الحكم في نزول القرآن الكريم مفرقاً، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٢، ٣٣].

قال الحافظ ابن كثير: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ بحجة أو شبهة يلتمسون بها عيب القرآن والرسول، ولا بقول يعارضون به الحق، إلا أجبناهم بما هو الحق في نفس الأمر، وأبين، وأوضح، وأفصح من مقالتهم^(٢).

ولا يخفى أن في الرد على الشبه دفعاً للطاعنين، وبياناً للحائرين.

ومن الأمور التي أورد أهل الكتاب حولها شبهاً، وأجاب القرآن الكريم عنها: طعنهم في نبوة سيدنا محمد ﷺ، ودعواهم أن إبراهيم -عليه السلام- كان

(١) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٢) يراجع: تفسير القرآن العظيم، للحافظ ابن كثير (٣/ ٣٢٧، ٣٢٨)، دار/ مصر، بدون تاريخ.

يهودياً، أو نصرانياً، وغير ذلك مما سيأتي له مزيد بيان -إن شاء الله تعالى- في ذكر مناهج القرآن الكريم في مناقشتهم.

ثانياً: مناهج القرآن الكريم في محاوراة أهل الكتاب:

انتهج القرآن الكريم مناهج متعددة، وأساليب متنوعة في محاورته لأهل الكتاب؛ وذلك من أجل إقناعهم وإقامة الحجة عليهم، ومن هذه المناهج:

أ- القصص القرآني:

من الأساليب التي اتخذها القرآن الكريم طريقاً لإقناع أهل الكتاب: القصص؛ إذ قد يساق الدليل في قصة، ويأخذ صورته من واقع الحياة في حوادثها، فتصغى إليه الآذان، وتميل إليه النفوس، وترتاح إليه الأفئدة، وتتأثر بها فيه من عظات وعبر، وقد يكون موضوع القصة رجلاً مقدماً عند أهل الكتاب، يدعون محاكاته في دينه، واتباعه في ملته، فيجيء برهان الله على لسانه، فيكون ذلك أكثر اجتذاباً لأفهامهم، وأقوى تأثيراً في قلوبهم^(١).

ومجيء الدليل ضمن خبر لرجل يعترف المجادل بفضله، يعطي الدليل قوة فوق قوته الذاتية؛ إذ تكون الحجة قد أقيمت عليه من جهتين: من جهة الدليل نفسه، ومن جهة أن الذي قاله رجل مقدم في نظره، يدعي أنه من أتباعه، فيلزم بقوله ويؤخذ برأيه^(٢).

ونذكر مثلاً لهذا المنهج، وهو قول الله تعالى في حوارهِ مع أهل الكتاب:

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى

(١) يراجع: تاريخ الجدل، للشيخ/ محمد أبو زهرة (ص ٦٥)، دار/ الفكر العربي، بدون تاريخ، الحوار مع أهل الكتاب أسسه ومناهجه (ص ١٨٨).

(٢) تاريخ الجدل (ص ٦٦).

الْعَلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفْعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٢٢ - ١٣٤].

وقد ذكر الإمام الرازي سبب ذكر قصة إبراهيم وفائدتها في محاوره أهل الكتاب فقال: «والحكمة فيه: أن إبراهيم - عليه السلام - شخص يعترف بفضلته جميع الطوائف والملل، فالمشركون معترفون بفضلته، متشرفون بأنهم من أولاده، وساكني حرمة، وخادمي بيته، وأهل الكتاب من اليهود والنصارى كانوا أيضًا مقرين بفضلته، متشرفين بأنهم من أولاده، فحكى الله سبحانه وتعالى عن إبراهيم - عليه السلام - أمورًا توجب على المشركين وعلى اليهود والنصارى قبول قول محمد ﷺ والاعتراف بدينه، والانقياد بشرعه، وبيانته من وجوه:

١ - منها: أنه تعالى أمره ببعض التكاليف، فلما وفي بها وخرج عن عهدها نال النبوة والإمامة، وفي هذا تنبيه لليهود والنصارى، والمشركين على أن الخير لا يحصل في الدنيا والآخرة إلا بترك التمرد والعناد، والانقياد لحكم الله تعالى وتكاليفه.

٢ - ومنها: أن الحج من خصائص دين محمد ﷺ، فحكى الله تعالى ذلك عن إبراهيم ليكون ذلك كالحجة على اليهود والنصارى في وجوب الانقياد لذلك.

٣ - ومنها: أن القبلة لما حولت إلى الكعبة شق ذلك على اليهود والنصارى، فبين الله سبحانه وتعالى أن هذا البيت قبله إبراهيم الذي يعترفون بتعظيمه، ووجوب الانقياد به، فكان ذلك مما يوجب زوال الغضب عن قلوبهم»^(١).

(١) ينظر: التفسير الكبير (٤/ ٣١).

وفي القصة أيضًا:

أن إبراهيم -عليه السلام- دعا بخروج النبي ﷺ ﴿ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾، ثم قال بعدها: ﴿ وَمَنْ يَّرْغَبْ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ [البقرة: ١٢٩، ١٣٠]، فلا حجة لهم بترك متابعتة.

وأيضًا: أن إبراهيم الذي يستشرفون بالنسبة إليه كان على الإسلام والتوحيد، كما كانت وصيته لأبنائه ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وهكذا كان للقصة دورها البالغ في محاوراة أهل الكتاب، كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَاقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [النمل: ٧٦]^(١).

ب- الأقيسة:

استخدم القرآن الكريم في محاورته لأهل الكتاب أنواعًا من الأقيسة؛ وذلك لما للقياس من أثر في إقامة الحجج على الخصوم، ومن هذه الأقيسة:

١- الأقيسة الإضهارية:

وهي التي تحذف فيها إحدى المقدمات مع وجود ما ينبئ عن المحذوف، والحذف طريقة القرآن الكريم^(٢)، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩].

(١) الحوار مع أهل الكتاب أسسه ومناهجه (ص ١٨٩)، بنو إسرائيل في الكتاب والسنة، د/ محمد سيد طنطاوي (ص ١١٨)، دار الشروق، مصر، ط/ الثانية، ١٤٢٠ هـ. ٢٠٠٠ م.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي (١/ ٣٨)، ت/ شعيب الأرنؤوط، الرسالة، بيروت، ط/ الحادية عشرة، ١٤١٨ هـ.

ذكر الله تعالى هذه الآية دليلاً على إبطال بنوة عيسى -عليه السلام- كما تزعم النصارى، ولم يذكر في هذا الدليل سوى مقدمة واحدة، وهي مماثلة عيسى لآدم، وكان سياق الدليل هكذا:

آدم خلق من غير أبٍ كعيسى، فلو كان عيسى ابناً بسبب ذلك لكان آدم أولى، لكن آدم ليس ابناً باعترافكم، فعيسى ليس ابناً أيضاً^(١).

٢- قياس الأولى:

وهو أن تكون العلة في الفرع أولى بالحكم منها في الأصل، والآية السابقة أشارت إلى هذا النوع من القياس، وتقديرها: أنهم إذا اتخذوا عيسى إلهاً؛ لأنه خلق من غير أبٍ، فآدم أولى؛ لأنه خلق من غير أبٍ ولا أمّ.

يقول سيد قطب: «إن ولادة عيسى -عليه السلام- حقاً عجيبة بالقياس إلى مألوف البشر. لكن آية غرابة فيها حين تقاس إلى خلق آدم أبي البشر، وأهل الكتاب الذين كانوا يناظرون في عيسى، ويجادلون بسبب مولده من غير أبٍ، كانوا يقرون بنشأة آدم من تراب، وأن النفخة من روح الله هي التي جعلت منه هذا الكائن الإنساني، دون أن ينسجوا حوله الأساطير التي نسجوها حول عيسى، ودون أن يقولوا: إن له طبيعة لاهوتية كعيسى مع أن آدم أولى^(٢).

٣- قياس الشبه:

استخدمه القرآن الكريم في بيان مشابهة أهل الكتاب للمشركين عبدة

(١) يراجع: تاريخ الجدل (ص ٦٤، ٦٥)، الحوار مع أهل الكتاب أسسه ومناهجه (ص ١٩٠).

(٢) يراجع: في ظلال القرآن، لسيد قطب (١/ ٤٠٤)، دار الشروق، بيروت، ط / ١٣٩٣، ١٩٧٣ م.

الأوثان، مع علمهم بفساد طريقة المشركين، وقد ذكر الله مشابهتم لهم في نسبة الولد إلى الله تعالى في قوله سبحانه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّى ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصْرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠]، كما ذكر مشابهتم لهم في كفرهم بمحمد ﷺ وحقدهم عليه في قوله تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ سَخَطٌ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَأْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥] ^(١).

يقول سيد قطب في تفسير هذه الآية: «ويجمع القرآن بين أهل الكتاب والمشركين في الكفر، وكلاهما كافر بالرسالة الأخيرة، فهما على قدم سواء من هذه الناحية، وكلاهما يضمم للمؤمنين الحقد والضغن ولا يود لهم الخير» ^(٢).

ج- التحدي والمباهلة:

إذا ظهر الحق واستبان، فإن التحدي والمباهلة من الأساليب النافعة في إظهار الحق، وإبطال الباطل.

وقد سلك القرآن هذا المنهج مع أهل الكتاب، ففي مقام التحدي يقول لهم: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

«والنبي ﷺ كان يقرأ هذه الآية على أصناف الخلائق أميهم وكتابيهم، وعربهم وعجمهم، ويقول: لن تستطيعوا ذلك، ولن تفعلوه أبداً، فيعدلون معه

(١) الحوار مع أهل الكتاب أسسه ومناهجه (ص ١٩١).

(٢) في ظلال القرآن (١/ ١٠١).

إلى الحرب والرضا بالقتل»^(١).

وفي مقام المباهلة -وهي نوع من التحدي- يقول الله تعالى في حوارهِ مع أهل الكتاب: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]، وهذه المباهلة كانت بين النبي ﷺ ونصارى نجران^(٢)، والمباهلة مشروعة إلى يوم القيامة.

يقول ابن القيم: «إن السنة في مجادلة أهل الباطل إذا قامت عليهم حجة الله ولم يرجعوا، بل أصروا على العناد، أن ندعوهم إلى المباهلة، وقد أمر الله سبحانه بذلك رسوله ﷺ، ولم يقل: إن ذلك ليس لأمتك من بعدك»^(٣).

د- إثبات أن دعواهم خالية من الحجة والبرهان:

وذلك لأن كثيراً من دعاوى أهل الكتاب تنقصها الحجة، ويعوزها الدليل والبرهان، فيطالبهم الله سبحانه بتقديم الأدلة على دعواهم، وهم لا يملكون إقامة حجة، ولا تقديم أدلة، بل دعاويهم تعتمد على الخرص والتخمين، فتهدى أمام المطالبة بالدليل.

ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

(١) ينظر: بدائع الفوائد، لابن قيم الجوزية (٤/ ٩٤٥، ٩٤٦)، ت/ هشام عبد العزيز عطاء، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة، ط/ الأولى، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

(٢) يراجع: استخراج الجدال من القرآن الكريم، لابن الحنبلي (ص ٦١)، ت/ محمد صبحي حسن، مؤسسة الريان، بيروت، ط/ الأولى، ١٤١٣هـ، تاريخ الجدل (ص ٥٤).

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم (٢/ ٥٦١)، ت/ شعيب الأرنؤوط، الرسالة، بيروت، ط/ الرابعة عشر، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.

لما ادعوا أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى، ذكر الله تعالى أن هذا لا يعدو أن يكون أمنية، ثم طالبهم بالدليل فقال: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١).

ومن ذلك أيضًا قول الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ تُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدُهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٨٠].

يقول ابن القيم: «فهذه مطالبة لهم بتصحيح دعواهم، وترديد هذه المطالبة بين أمرين لا بد من واحد منهما، وقد تعين بطلان أحدهما، فلزم ثبوت الآخر، فإن قولهم: «لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودة» خبر عن غيب لا يعلم إلا بالوحي، فإذا أن يكون قولاً على الله بلا علم فيكون كذباً، وإما أن يكون مستنداً إلى وحي من الله تعالى وعهد عهده إلى المخبر، وهذا إن كان موجوداً فليأتوا بدليل يصدقه... وإلا فهو منتفٍ، فتعين أن يكون خبراً كاذباً، فائله كاذب على الله تعالى»^(٢).

هـ- الاستدلال بنصوص كتبهم وبما يسلمون به:

احتج القرآن الكريم على أهل الكتاب بما يسلمون به من حقائق موجودة في كتبهم، وذلك تحقيقاً في إقامة الحق عليهم.

ومن ذلك أنه رغبهم في الإيثار بمحمد ﷺ، وأخبر عن وجود ذلك في كتبهم، فقال مادحاً من آمن منهم: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا

(١) يراجع: أدب الحوار في الإسلام، د/ سيد طنطاوي (ص ١٨١، ١٨٢)، دار نهضة مصر، ط/ ١٩٩٧م.

(٢) بدائع الفوائد (٤/ ٩٥٢).

لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِعَايَتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ... ﴿١٥٧﴾ الآية. [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧].^(١)

وأيضاً:

احتج عليهم بذلك في بعض المسائل الفرعية، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ ۚ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣].

فإسرائيل -يعقوب عليه السلام- أخذه وجع العرق، فنذر لئن شفاه الله تعالى ليحرم من أحب الطعام والشراب إليه على نفسه، وكان أحب ذلك إليه لحوم الإبل وألبانها، فشفي، فوفي بنذره، وادعت اليهود أن ذلك كان حراماً على نوح حتى انتهى الأمر إليهم، فبين الله تعالى بطلان دعواهم وأمرهم بأن يأتوا بالتوراة فيتلوها، فلم يجسروا على الإتيان بها^(٢).

و- الاستدلال بلازم كلامهم:

ذكر الإمام الرازي في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى هَتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥]، أن في الآية استدلالاً بلازم كلامهم، وذلك أنهم تواصلوا باليهودية والنصرانية، وهذا معناه ترك النظر والأخذ بالتقليد، فأجابهم الله تعالى بأنه إذا كان لا بد من

(١) يراجع: استخراج الجدل من القرآن الكريم (ص ٥٨)، بنو إسرائيل في القرآن والسنة (ص ٨٧).

(٢) يراجع: استخراج الجدل من القرآن الكريم (ص ٦٣)، الحوار بين المسلمين وأهل الكتاب أسسه ومناهجه (ص ٧٩، ٨٠).

التقليد، فتقليد إبراهيم -عليه السلام- أولى؛ لأنهم متفقون على تعظيمه، ومختلفون في اعتبار أي الديانتين اليهودية والنصرانية، وذلك قوله: «اعلم أن الله تعالى لما بين الدلائل التي تقدمت في صحة دين الإسلام، حكى بعدها أنواعاً من شبه المخالفين الطاعنين في الإسلام.

الشبهة الأولى: حكى عنهم أنهم قالوا: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصْرَى تَهْتَدُوا﴾ ولم يذكروا في تقرير ذلك شبهة، بل أصروا على التقليد، فأجابهم الله تعالى عن هذه الشبهة من وجوه:

الأول: ذكر جواباً إلزامياً، وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ بَلَّ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾، وتقرير الجواب:

أنه إن كان طريق الدين التقليد، فالأولى في ذلك اتباع ملة إبراهيم -عليه السلام-؛ لأن هؤلاء المختلفين قد اتفقوا على صحة دين إبراهيم، والأخذ بالمتفق أولى من الأخذ بالمختلف إن كان المعول في الدين على التقليد، فكأنه سبحانه وتعالى قال: إن كان المعول في الدين على الاستدلال والنظر، فقد قدمنا الدلائل، وإن كان المعول على التقليد، فالرجوع إلى دين إبراهيم -عليه السلام- وترك اليهودية والنصرانية أولى^(١).

وكثير -غير هذا- من ادعاءات أهل الكتاب يلزم منها أمور لا يقرونها، وقد حاجهم القرآن الكريم بذلك.

ومن ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير، أنه لما نزلت ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، قالت اليهود: فنحن مسلمون، فقال لهم النبي ﷺ: «إن الله فرض على الناس حج البيت

(١) التفسير الكبير (٤/٧٣)، وينظر: الحوار مع أهل الكتاب أسسه ومناهجه (ص ٢٣، ٢٠٤).

من استطاع إليه سبيلاً» فقالوا: لم يكتب علينا الحج، وأبوا أن يحجوا، فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿... وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] ^(١).

ز- إثبات تحريفهم لكتبهم:

يحتاج القرآن الكريم أهل الكتاب مبيناً لهم التحريف الذي لحق بكتبهم؛ بسبب تقولهم على الله تعالى، ابتغاء لنيل ثمن قليل، فيقول: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا تُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي أَلْدِينِ...﴾ [النساء: ٤٦]، وقال سبحانه: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ...﴾ [المائدة: ١٣] ^(٢)، وإذا خاطبهم القرآن بأنهم حرفوا ولم يعترضوا، فقد قامت عليهم الحجة، وثبت بذلك صحة الدعوى.

ح- إثبات تناقضهم:

لما آمن أهل الكتاب كل بنيه، رد عليهم القرآن الكريم بأن الإيمان بنبي دون غيره وقوع في التناقض، وأنه لا استقامة لمنهجهم إلا بالإيمان بمحمد ﷺ.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ

(١) تفسير القرآن العظيم (١/٣٨٦).

(٢) بنو إسرائيل في القرآن والسنة (ص ٤٧٤ - ٤٧٥)، تاريخ الجدل (ص ٤٩)، الحوار مع أهل الكتاب أسسه ومناهجه (ص ٢٠٦).

أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

يقول الإمام الرازي في تفسير هذه الآية: «اعلم أنه لما تكلم على طريقة المنافقين، عاد يتكلم على مذاهب اليهود والنصارى، ومناقضاتهم، وذكر هنا من هذا الجنس أنواعاً:

النوع الأول من أباطيلهم: إيمانهم ببعض الأنبياء دون البعض... وإني إنما كانوا كافرين حقاً لوجهين:

الأول: أن الدليل الذي يدل على نبوة البعض ليس إلا المعجز، وإن كان دليلاً على النبوة لزم القطع بأنه حيث حصل حصلت النبوة، فإن جوزنا في بعض المواضع حصول المعجز بدون الصدق، تعذر الاستدلال به على الصدق، وحينئذ يلزم الكفر بجميع الأنبياء، فثبت أن من لم يقبل نبوة أحد منهم لزمه الكفر بجميعهم»^(١).

ويقول أيضاً: «إن الطريق إلى معرفة نبوة الأنبياء ظهور المعجز عليهم، ولما ظهر المعجز على يد محمد ﷺ وجب الاعتراف بنبوته والإيمان برسالته، فإن تخصيص البعض بالقبول وتخصيص البعض بالرد يوجب المناقضة في الدليل... واليهود والنصارى لما اعترفوا بنبوة بعض من ظهر المعجز عليه، وأنكروا نبوة محمد ﷺ مع قيام المعجز على يده، فحينئذ يلزمهم المناقضة»^(٢).

ط - إظهار سوابقهم مع أنبيائهم:

كان أهل الكتاب يرفضون رسالة محمد ﷺ؛ وخشية أن يؤثر موقفهم هذا

(١) التفسير الكبير (١١/ ٧٣، ٧٤).

(٢) التفسير الكبير (٤/ ٧٥).

على البعض، بوصفهم أهل كتاب سابق، يطيل القرآن في بيان مخالفتهم لرسلمهم، وتعتنهم، وعنادهم؛ وذلك ليظهر للرأي العام أن هؤلاء الراضين لرسالة محمد ﷺ كانوا كذلك مع من سبقه من الرسل، فلا يضر رفضهم، ولا يدل على صحة ما عندهم^(١).

يقول الإمام الرازي في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّيْعَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥]: في الآية إزالة شبهة من يقول: إن نبوة محمد ﷺ لو صحت لكان أولى الناس بالإيمان به أهل الكتاب؛ لما أنهم عرفوا خبره؛ وذلك لأنه تعالى بين أن أسلافهم مع مشاهدتهم الآيات الباهرة على نبوة موسى -عليه السلام- كانوا يرتدون في كل وقت ويتحكمون عليه ويخالفونه، فلا يتعجب من مخالفتهم لمحمد ﷺ^(٢).

والآيات التي بين القرآن الكريم فيها سوابق أهل الكتاب مع رسلمهم كثيرة، منها: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: ٥١].

وأيضاً: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْعَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ أَخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٥٣].

ي- التسليم:

وهو أن يفرض المحال، ثم يسلم وقوع ذلك تسليماً جديلاً، ويدل على عدم

(١) الحوار مع أهل الكتاب أسسه ومناهجه (ص ١٩٨).

(٢) ينظر: التفسير الكبير (٣/ ٧٨).

فائدة ذلك على تقدير وقوعه لما يلزم عنه من محال لم يقع.

وذلك كقوله تعالى في الرد على اتخاذ الله تعالى ولداً، ووجود إله غيره يشاركه في الإلهية: ﴿مَا آتَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

والمعنى: ليس مع الله إله، ولو سلم أن معه إلهاً لزم من ذلك التسليم ذهاب كل إله بما خلق، وعلو بعضهم على بعض، فلا يتم في العالم أمر، ولا ينفذ حكم، ولا تنتظم أحواله، والواقع خلاف ذلك، ففرض وجود إلهين فصاعداً محال، لما يلزم عنه من المحال^(١).

ويبين الإمام القرطبي هذا المنهج في الآية كدليل على نفي الولد فيقول: «والتقرير ما اتخذ الله ولداً - كما زعمتم - ولا كان معه فيما خلق إله، وإلا لانفرد كل إله بخلقه، ولحصلت المغالبة كالعادة بين الملوك، وهذا الذي يدل على نفي الشريك، يدل على نفي الولد أيضاً؛ لأن الولد ينازع الأب في الملك منازعة الشريك»^(٢).

ك- الوعظ والتذكير:

إن أهل الكتاب لا تنقصهم الحقائق، كما لا يخفى عليهم الهدى، وإنما ينقصهم الإيمان، لذا نجد القرآن الكريم يعظهم ويذكرهم ليردهم إلى الحق، ولكي لا يبقى لهم حجة أو عذر. فتارة يذكرهم بنعم الله تعالى عليهم، التي من الواجب أن تقابل بالشكر والإيمان، لا بالكفر والجحود، فيسرد النعم التي أنعم

(١) ينظر: الإتقان في علوم القرآن (ص ٤٩٢).

(٢) يراجع: الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ١٣).

الله بها على بني إسرائيل ابتداء بتفضيلهم على العالمين، ومرورًا بإنجائهم من آل فرعون، وإغراق فرعون، وعفو الله عنهم بعد اتخاذهم العجل، وإحيائهم بعد موتهم، وتظليل الله عليهم الغمام، وإنزال المن والسلوى، وتفجير الأرض اثنتي عشرة عينًا، إلى غير ذلك من النعم^(١).

فمن تذكيرهم بالنعم: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٢].

ومن تذكيرهم بعاقبة كفرهم وعصيانهم قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥، ٦٦].

والقرآن في وعظه أهل الكتاب، تارة يستعمل أسلوب التهيب؛ ليصرفهم عن الكفر والفسوق والعصيان، وتارة يستعمل أسلوب الترغيب؛ ليحملهم على الطاعة والصلاح^(٢).

ل- الاستفهام الإنكاري:

وقد ورد هذا كثيرًا في القرآن الكريم في سياق محاوراة أهل الكتاب، وهو أن ينكر عليهم أفعالهم المنكرة عن طريق الاستفهام، فلا يملكون جوابًا؛ لما تحويه هذه الأفعال من فساد يعرف بداهة بالفطرة، ولما تحويه من تناقض ومخالفة لما في كتبهم.

ومن هذه الاستفهامات قوله تعالى: ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِعَايَةِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

(١) الحوار مع أهل الكتاب أسسه ومناهجه (ص ١٩٢).

(٢) يراجع: بنو إسرائيل في القرآن والسنة (ص ١١٠).

بِالْبَطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿[آل عمران: ٧٠، ٧١].

وأيضاً قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُنُومُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ، وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١].

وللاستفهام في الآية دوره الفعال في إيقاع الحرج بأهل الكتاب؛ وذلك لأن الذي يدعي إثبات شريعة والتمسك بها، ومدافعة غيرها يلزمه نصرته من يقوم عليها، ويدعو إلى سبيلها، فإن وقع خلاف ذلك منه فانقضت على دعائها، وبطش بهم، واستباح قتلهم، وسفك دمائهم، فهو إذاً عدو مجاهر، وخصم لا يهادن؛ لأنه أجنبى عن هذه الدعوى، فلا ينبغي له أن يدعي الانتساب إليها والسكون إلى حمايتها^(١).

هذا، ولم ينجح القرآن الكريم في محاوراته لأهل الكتاب إلى استخدام لفظ يشعر بسوء أدب، بل استخدم الأسلوب الأمثل، والألفاظ التي حفظت لهم قدرهم.

فتراه دائماً يناديهم: بـ«يا أهل الكتاب» «يا أيها الذين أوتوا الكتاب» «يا بني إسرائيل»، ولم يستخدم القرآن الكريم معهم لفظاً نابياً، أو أسلوباً جافياً، بل رغبهم، وتودد إليهم، وهو في ذلك يعلمنا أنه إن دعت الحاجة إلى الحوار مع أهل الكتاب، فلا بد من التأسي بالقرآن الكريم في أسلوبه، والسير على منهجه.

ومن خلال ما سبق يمكن القول: إن ما سلكه القرآن الكريم في مجادلة أهل

(١) يراجع: على هامش الحوار بين القرآن واليهود، حسني يوسف الأثير (ص ٨٥)، دار الأنصار، القاهرة، ط / الأولى، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م. وأيضاً: تاريخ الجدل (ص ٧٠)، الحوار مع أهل الكتاب أسسه ومناهجه (ص ١٨٥).

الكتاب فيه الإلزام المفحم، والحجة الناطقة، إذ أدحض حججهم، وأرشدهم المحجة، ووضع لهم الأعلام؛ ليسيروا على الجادة، ولا يحدوا عنها.

وإذا كان هذا منهج القرآن الكريم في مناقشة أهل الكتاب، فما طريقة أهل الكتاب في طعنهم على الإسلام؟ وما منهج الإمام القرافي في مناقشة أهل الكتاب؟ هذا ما ندع المباحث القادمة تجيب عنه.



المطلب الثالث

طريقة أهل الكتاب في الطعن على الإسلام

«دين - كتاب - رسول»

كان لجو التسامح الديني الذي عاشه اليهود والنصارى في ظل الإسلام أثر بالغ في أن يعبروا عن عقائدهم، وأن يحتجوا لها. ولما كان أهل الكتاب يسوؤهم انتقال النبوة لأبناء إسماعيل - عليه السلام -؛ مخافة أن يخضعوا لأحكامهم، أو ألا يكون لهم فضل في دولتهم، اتفقت كلمتهم على الكيد للإسلام وأهله.

وليس من المبالغة القول: إن أهل الكتاب لم يتركوا وسيلة من شأنها تعطيل سير الإسلام، وإلا وجوها، ولم تلح لهم بادرة يستطيعون من خلالها الطعن في الإسلام ونبيه ﷺ وكتابه، إلا استغلوها لصالحهم.

ويمكن تحديد مواطن الطعن إجمالاً في الآتي:

- محاولة إثبات أن دينهم هو الدين الصحيح وما عداه باطل.

- الطعن في نبوة سيدنا محمد ﷺ.

- الطعن في شخص النبي ﷺ.

- الطعن في القرآن الكريم.

- الطعن في دين الإسلام.

ويسلك أهل الكتاب في طعنهم على الإسلام طريقتين، لا ثالث لهما:

١ - خلط الحق بالباطل حتى لا يتميز أحدهما عن الآخر.

٢ - جحد الحق وإخفاؤه حتى لا يظهر.

وقد استعمل أهل الكتاب الطريقتين لصرف الناس عن الإسلام، فقد كان

بعضهم يؤول نصوص كتبهم الدالة على صدق النبي ﷺ تأويلاً فاسداً يخلط فيه بين الحق، والباطل؛ ليوهموا الناس أنه ليس هو النبي المنتظر، وكان بعضهم يلقي حول الحق شبهاً؛ ليوقع ضعاف الإيمان في حيرة وتردد، وكان بعضهم يخفي أو يحذف النصوص الدالة على صدق النبي ﷺ، أو التي لا توافق أهواءهم^(١).

يقول الإمام الرازي: «اعلم أن الساعي في إخفاء الحق لا سبيل له إلى ذلك إلا من وجهين:

إما بإلقاء الشبه التي تدل على الباطل.

وإما بإخفاء الدليل الذي يدل على الحق.

وقول الله تعالى: ﴿لَمْ تَلِسُوا بِالْحَقِّ بِالْبَاطِلِ﴾ [آل عمران: ٧١] إشارة إلى المقام الأول، وقوله تعالى: ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١] إشارة إلى المقام الثاني^(٢).

وفي سبيل أن يحقق أهل الكتاب ما يريدون أن يصلوا إليه من طعن في دين الله تعالى وصرف الناس عنه، انتهجوا مناهج عدة، منها:

أ- الاعتماد على الكتب المحرفة لديهم:

يقول الإمام نجم الدين الطوفي في كتابه «الانتصارات الإسلامية» -وقد ألفه في الرد على بعض النصارى في زمانه-: «إن هذا النصراني رأيته يعتمد في طعنه على الإسلام على التوراة المحرفة، والأنجيل التي بأيدي اليهود والنصارى، وعلى كتب الأنبياء الأوائل كنبوذة إشعياء، وإرمياء، ودانيال،

(١) أدب الحوار في الإسلام (ص ١٩١).

(٢) التفسير الكبير (٨/ ٨٢).

والأنبياء الاثنى عشر، ومزامير داود، وغيرها»^(١).

وقد حرف أهل الكتاب من كتبهم اسم محمد ﷺ، ودلائل نبوته؛ وذلك لئلا يكون له حجة عليهم من كتابهم، وحرفوا مع ذلك أشياء مما جاء به محمد ﷺ عن وصفه الذي في التوراة؛ ليصير ذلك شبهة لهم في تكذيبه؛ ليقولوا ما نصنع به؟ لو وافق ما عندنا أو ذكر فيه آمنا به^(٢).

يقول العلامة سيد قطب: «لقد بلغ من التوائهم، وسوء أدبهم مع الله عز وجل أن يحرفوا الكلم عن المقصود... وذلك لكي ينفوا ما فيها من دلائل على الرسالة الأخيرة، ومن أحكام وتشريعات يصدقها الكتاب الأخير، وتدل وحدتها في الكتابين على المصدر الواحد»^(٣).

وأهل الكتاب في تحريمهم تعسفوا تعسفاً ممقوتاً، إذ غاب عنهم سياق العبارات الذي يربط النصوص بما قبلها وما بعدها، وكان ذلك في صالح المسلمين من ناحيتين:

- إثبات التحريف على أهل الكتاب، وإلا لو كان الكتاب منزلاً من عند الله تعالى، لجاء على نسق واحد مترابط العبارات والتراكيب.

- أنهم - وإن حذفوا أو بدلوا ما يدل على صحة الدين الإسلامي - فقد بقي السياق شاهداً على صحته.

ومن أمثلة اعتمادهم على كتبهم المحرفة في طعنهم في النبي ﷺ قول بعض

(١) ينظر: الانتصارات الإسلامية، لنجم الدين الطوفي (ص ٣٨)، ت/ د. أحمد حجازي السقا، مكتبة الكلية الأزهرية، بدون تاريخ.

(٢) يراجع الانتصارات الإسلامية (ص ٩٢).

(٣) في ظلال القرآن (٢/ ٦٧٥).

أهل الكتاب بعد ذكر وصية عيسى -عليه السلام-: «احذروا أنبياء الكذب الذين يأتونكم بلباس الحملان -يعني: سمة الأبرار-، وزى العباد، باطنهم ذئب خاطفة»^(١).

«وقد رأينا نفاذ الأمر فيمن ادعى النبوة، فأظهر سمة الحملان، ثم عمل عمل الذئب، فأمر بخلاف هذه الوصايا من العداوة للناس عامة، والتحريض على قتل من خالفه، والأمر بالقصاص والانتقام، ثم الأمر بالإكثار من النساء... ثم ما وصف الله به من الجور والفساد والظلم؛ إذ زعم أنه تعالى يهدي بعضًا ويضل بعضًا»^(٢).

وأيضًا من أمثلة اعتمادهم على كتبهم المحرفة حمل البشارة بالنبى الخاتم ﷺ على عيسى -عليه السلام- ومن ذلك ما جاء في سفر أعمال الرسل: «والآن أيها الإخوة... توبوا إلى الله، وارجعوا لكي تمحى خطاياكم، لكي تأتي أوقات الفرج من وجه الرب، ويرسل يسوع المسيح المبشر به لكم من قبل... فإن موسى قال للآباء: إن نبيًا مثلى سيقم لكم الرب إلهكم من إخوانكم، له تسمعون في كل ما يكلمكم به، ويكون أن كل نفس لا تسمع لهذا النبي تباد من الشعب، وجميع الأنبياء أيضًا من صموئيل، فما بعده، جميع الذين تكلموا سبقوا وأنبأوا بهذه الأيام»^(٣).

وسياتي الرد على ما ذكره إن شاء الله تعالى في الفصل الأخير من البحث.

(١) إنجيل متى، الإصحاح السابع، الفقرات (١٥ - ١٧).

(٢) ينظر: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام (٤/ ٤٤٨)، الانتصارات الإسلامية (ص ٤٦).

(٣) سفر أعمال الرسل، الإصحاح (١٦)، الفقرات (١٨ - ٢٥).

ب- محاولة ليّ النصوص القرآنية وحملها على غير محلها إثباتاً أو طعنًا:

يحاول أهل الكتاب في إثبات عقائدهم، والطعن في ديننا حمل النصوص القرآنية على غير محلها الصحيح؛ وذلك ظناً منهم أن كتابنا ككتبهم، وهم في ذلك كانوا هزءاً للهازين، وسخرة للساخرين؛ إذ إنهم ينهجون نهجاً آخر يطعنون فيه في القرآن الكريم، وأنه لا يصلح أن يكون كتاباً من رب العالمين، أو ما دروا أنهم بذلك ناقضوا أنفسهم بأنفسهم؟!

ومن أمثلة استخدام أهل الكتاب هذا المنهج في مقام تأييد عقائدهم قول بعضهم:

يقول الله تعالى في سورة «الأنعام»: ﴿... لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ...﴾ [الأنعام: ١١٥]؛ يعني: كلمات الله وهي التوراة والإنجيل، وفي سورة «الحجر»: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، والذكر هنا -كما يقول-: التوراة والإنجيل، ويشهد لذلك قوله تعالى في سورة «الأنبياء»: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

وقد رد عليهم الطوفي البغدادي «بأنه فسر كلمات الله بالتوراة والإنجيل ليثبت؛ علينا بكتابنا أنها حجة لازمة لنا، وهيئات فدون المراد موانع، والذي يدل على أنه ليس المراد بكلمات الله تعالى هنا التوراة والإنجيل هو أن هذه الآية في سورة «الأنعام»، وسورة «الأنعام» كلها جدال، ومناظرة لعباد الأوثان الذين ينكرون البعث، ولا تعرض فيها لأهل الكتاب، إلا بطريق الاستشهاد بهم؛ كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ...﴾ [الأنعام: ٢٠]، وليس الذكر في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، هو التوراة والإنجيل بإجماع مفسري القرآن الكريم، بل هو القرآن الكريم، وأما اعتماده على: ﴿فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ٧] فلا

حجة له فيه؛ لأن قبل ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٢]، والذكر هنا يعني القرآن الكريم بلا خلاف، فالذكر المراد هنا أيضًا هو القرآن بدليل المذكور أولاً^(١).

ومن أمثلة استخدام هذا المنهج في مقام الطعن قولهم:

القرآن يشتمل على ما ليس بصحيح، فلا يكون من عند الله، وبيان اشتماله على ذلك ما ينقله المسلمون عنه من قول الله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ أَبْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا...﴾ [التحریم: ١٢].

ومريم ليست ابنة عمران؛ لأن عمران أبو موسى -عليه السلام-، وبين موسى ومريم -رضي الله عنها- نحو ستائة سنة، فأين عمران من مريم حتى يكون أباهما؟^(٢).

وسياقي الجواب عن هذه الشبهة عند ذكر شبهات النصارى على القرآن الكريم إن شاء الله تعالى.

د- الاعتماد على الأحاديث الضعيفة والموضوعة:

إن كثيرًا من الأحاديث الموضوعة، والإسرائيليات، والأباطيل كانت ولا تزال مثار شبه، وتشكيك وطعون، وتجنّيات على الإسلام، والقرآن، والنبي صلوات الله وسلامه عليه.

وقد حمل كبر هذا الإثم -قديمًا وحديثًا- أهل الكتاب، فقد وجدوا في هذه الإسرائيليات والمختلقات ما يشبع هواهم، ويرضي تعصبهم الممقوت، ويشفي

(١) يراجع: الانتصارات الإسلامية (ص ٦٧ - ٧١).

(٢) الأجوبة الفاخرة (ص ٦١ - ٦٢).

نفوسهم المريضة الحاقدة على الإسلام ونبيه وكتابه^(١).

يقول القاضي عياض نقلاً عن القاضي بكر بن العلاء المالكي: «لقد بلى الناس ببعض أهل الأهواء والتفسير، وتعلق بذلك الملحدون مع ضعف نقلته واضطراب رواياته وانقطاع إسناده»^(٢).

ويقول بعد ذكر حديث -الغرائق الذي سيأتي كمثال للاعتقاد على ما هو موضوع-: «ولا شك في إدخال بعض شياطين الإنس والجن هذا الحديث على بعض المحدثين؛ ليلبس به على ضعفاء المسلمين»^(٣).

ومن أمثلة اعتمادهم على ما هو موضوع:

ما ذكروا من أن النبي ﷺ كان يتمنى أن يتبعه قومه، ولكثرة تمنيه ذلك ألقى الشيطان على لسانه في سورة «النجم» حين قال: ﴿وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةِ الْآخَرَى﴾ [النجم: ٢٠]: «تلك الغرائق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى، ففرح المشركون بذلك، وقالوا: قد ذكر آلهتنا بخير، فلانوا له، وكفوا عن أذاه وأذى أصحابه... ولما علم النبي ﷺ أن ما قاله من مدح الأصنام من إلقاء الشيطان اغتم لذلك، فأنزل الله سبحانه تسلياً له: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج: ٥٢].

(١) يراجع: الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، د. محمد أبو شهبة (ص ٥)، مكتبة السنة، بدون تاريخ.

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض (٢/ ١١٧)، ط / أبو حازم عز الدين بمكة المكرمة، بدون تاريخ.

(٣) الشفا (٢/ ١٢٠).

ثم قالوا: تضمنت هذه القصة باطلين:

- ١- الافتراء على الرسل في وصفهم بهذه المثلية من أن الشيطان تلبس عليهم في وحي الله سبحانه وتعالى بما يقع به الغواية والإضلال للناس.
- ٢- إخباره بأن للأصنام شفاعاة، ومدحها بذلك، وهذا لا يصح من نبي يدعو إلى التوحيد، ونبد الشرك، فلا يكون نبياً^(١).

(١) يراجع: الانتصارات الإسلامية (ص ١٣١) وما بعدها. يقول ابن حجر في رد هذا الحديث: «قال البزار: وإنما يروى هذا من طريق الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس. ثم قال ابن حجر: والكلبي متروك ولا يعتمد، ثم ذكر الروايات والطرق لهذا الحديث، وقال: ومعناهم كلهم في ذلك واحد، وكلها سوى طريق سعيد بن جبير؛ إما ضعيف، وإما منقطع، لكن ابن حجر اعتبر كثرة الطرق في هذا الحديث دليلاً على أن للقصة أصلاً، ولذلك لجأ إلى حملها على معنى لا يتنافى مع عصمة الرسول ﷺ وهو أنه لجأ إلى تأويل ما وقع فيها مما يستنكر، وذكر مسالك في التأويل منها: أن ذلك جرى على لسانه ﷺ حين أصابته سنة وهو لا يشعر، فلما علم بذلك أحكم الله آياته، ومنها: أنه لعله قالها توبيخاً للكفار، ومنها: أنه ﷺ كان يرتل القرآن، فارتصده الشيطان في سكتة من السكتات، ونطق بتلك الكلمات محاكياً نغمته، بحيث سمعها من دنا إليه فظنها من قوله ﷺ. قال ابن حجر: «وهذا أحسن الوجوه» [فتح الباري (٨/ ٥٤١)].

والبدر العيني قال في هذا الحديث: «وهذا الحديث الذي ذكر فيه، أكثر طرقه منقطعة، ولم يوجد لها إسناد صحيح، ولا متصل إلا من ثلاث طرق، ثم قال بعد أن ذكرها: وجميع هذه الأسانيد لا يحتج بشيء منها» [عمدة القاري لبدر الدين العيني (٩/ ١٠٠)]، إدارة الطباعة المنيرية لصاحبها ومديرها/ محمد منير أغا الدمشقي، مصر، بدون تاريخ.

ويقول الإمام الرازي بعد أن ذكر هذه القصة سبباً لنزول الآية: «هذه رواية عامة المفسرين الظاهريين، أما أهل التحقيق فقد قالوا: هذه الرواية باطلة موضوعة، ثم ذكر ما يفندوها من القرآن والسنة والمعقول» [يراجع التفسير الكبير (٢٣/ ٤٤)].

ويقول القاضي عياض في هذا الحديث: «ويكفيك أن هذا حديث لم يخرج أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، وإنما أولع به المفسرون والمؤرخون

ومن أمثلة اعتمادهم على ما هو ضعيف أو موضوع في عصرنا: ما قاله زكريا بطرس^(١) من أن صاحب كتاب المصاحف^(٢) ذكر في كتابه: «أن الحجاج بن يوسف قد غير في حروف المصحف عشر كلمات، وإذا غير في القرآن دل على وقوع التحريف فيه»^(٣).

هـ- الاعتماد على مسلمات المسلمين:

إن أهل الكتاب في إيرادهم الشبه يستخدمون مسلمات المسلمين، وينون عليها شبههم الباطلة، ومن ذلك ما ذكره القرطبي المحدث (ت ٦٥٦هـ) عن

المولعون بكل غريب، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم [الشفاء (٢/ ١١٧/ ١١٨)].

(١) زكريا بطرس: مصري، تخرج في كلية الآداب، جامعة الأسكندرية ١٩٥٧م، وعين كاهناً بدرجة قس على كنيسة مار جرجس بمحافظة المنوفية، ثم ترقى إلى درجة قمص، وعمل في معظم الكنائس المصرية، ثم انتقل إلى استراليا، ثم إلى بريطانيا، حيث كنيسة السيدة العذراء ببرايتون بالمملكة المتحدة، ثم قدم استقالته في ٧/ ١٢/ ٢٠٠٠م، وقبلت في ١١/ ١/ ٢٠٠٣م، وهو يبتث سموه ضد الإسلام عبر قنوات التلفزيون، وعبر شبكة الاتصالات العامة «الإنترنت»، نقلاً من مقدمة كتاب «المخرس في الرد على القس المفلس زكريا بطرس» لمفتاح محمد فاضل، المقدمة [ح- خ- د] مركز التنوير الإسلامي، مصر، ط/ الأولى ١٤٢٧هـ.

(٢) صاحب كتاب «المصاحف» هو أبو بكر بن أبي داود السجستاني (ت ٢٧٥هـ).

(٣) يراجع: «المخرس في الرد على المفلس زكريا بطرس» (ص ٢٠).

وهذه رواية ضعيف جداً أو موضوعة؛ لأن فيها عباد بن صهيب، وهو متروك الحديث، قال علي بن المديني: ذهب حديثه، وقال البخاري والنسائي وغيرهما: متروك، وقال ابن حبان: كان قدريراً داعية، ومع ذلك يروى أشياء إذا سمعها المبتدئ في هذه الصناعة شهد لها بالوضع، وقال الذهبي: أحد المتروكين. [لسان الميزان لابن حجر (٣/ ٣٣) مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط/ الثالثة، ١٤٠٦هـ]، وينظر في الحكم عليه أيضاً: [الجرح والتعديل لابن أبي حاتم الرازي (٦/ ٨١)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط/ الأولى، ١٢٧١هـ].

بعض النصارى في عصره، أورد شبهة قال فيها: «الآن وجب عليّ أن أسألك في أمر التثليث عن خلق الله تعالى لجميع ما خلق، إن كان خلقهم بقدرة وعلم وإرادة؟ أم خلقهم بغير هذا؟

فإذا اضطرتك المسألة إلى القول بها؛ فإني سائلك: إن كانت اسمًا لذاته أو اسمًا لأفعاله؟ فإن قلت: هي أسماء لذاته؛ فقد نفقت وجعلتها أسماء للذات، ووقعت فيما أنكرت من الجسم، وإن قلت: هي من أسماء أفعاله التي منها سمي قادرًا عالمًا مريدًا، فهو التثليث الذي أمرنا بالقول به. اهـ»^(١).

ومن ذلك أيضًا ما روي عن يوحنا الدمشقي^(٢) الذي حاول أن يطعن في كل شيء في الإسلام تقريبًا، يقول: «إذا سألك المسلم: ماذا تقول في المسيح؟ فقل له: إنه كلمة الله، ثم ليسأل النصراني المسلم: بم سمي المسيح في القرآن؟ وليسكت ولا يتكلم بشيء حتى يجيبه المسلم قائلاً: «كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه»، فإن أجاب بذلك، فاسأله: هل كلمة الله وروحه مخلوقة؟ فإن قال: مخلوقة، فيرد عليه بأن الله كان إذنً، ولم تكن كلمة الله، ولا روح، قال يوحنا: إذا قلت ذلك، فسيفحم المسلم»^(٣).

و- إظهار موافقتهم للمسلمين، فإذا رضي المسلمون بهذه الموافقة وعلمها الناس اتخذها أهل الكتاب مطعنًا على المسلمين.

(١) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام (١/ ٥٨).

(٢) يوحنا سرجيوس منصور، ولد في سنة ٧٧٦م بدمشق، ورسم كاهنًا في سنة ٨٤٨م وتوفي في سنة ٨٨٠م وكان له من العمر ما يزيد عن مائة سنة. يراجع: الكنز الثمين في أخبار القديسين لمكسيموس مظلوم: (١/ ٢٥٦-٢٥٨) مطبعة المرسلين اليسوعيين، بيروت، ط/ ١٨٦٣م.

(٣) الجدل الإسلامي لأهل الكتاب وأثره الحضاري، د. خالد السيوطي (ص ٩/ ١٠). مكتبة الإيمان، القاهرة، ط/ الأولى، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.

ولعل في قول الله تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢] ملمحاً إلى هذا.

يقول الإمام الرازي: «إن اليهود والنصارى استخرجوا حيلة في تشكيك ضعفة المسلمين في صحة الإسلام، وهو أن يظهروا تصديق ما ينزل على محمد ﷺ من الشرائع في بعض الأوقات، ثم يظهروا تكذيبه، فإن الناس متى شاهدوا هذا التكذيب قالوا: هذا التكذيب بعد الموافقة، إنما هو لأجل أنهم أهل كتاب، وقد تفكروا في أمره، واستقصوا في البحث عن دلائل نبوته، فَلَا حَ لَهم بعد التأمل التام والبحث الوافي أنه كذاب، فيصير هذا الطريق شبهة لضعفة المسلمين في صحة نبوته»^(١).

ولعل هذا ما عناه بعضهم في قوله: «أجمع المسلمون معنا على صحة شريعة موسى -عليه السلام- وأنه الصادق البر، وقد قال: تمسكوا بالسبت ما دامت السماوات والأرض»^(٢)، فلا يكون بعده رسالة أخرى، فتبطل رسالة عيسى -عليه السلام-»^(٣).

فلو سلم المسلمون بهذه المقدمة ونتيجتها لقام عليهم نفس الدليل في إبطال شريعة محمد ﷺ والتمسك بشريعة موسى -عليه السلام-، وأنت ترى كيف يجذبون المسلمين إلى صفهم -كما في قوله: أجمع المسلمون- وما ذلك إلا ليغيروا عليهم بنفس ما سلموا به.

(١) التفسير الكبير (٨/ ٨٣).

(٢) سفر الخروج: الإصحاح: (٣١) الفقرتان: (١٦، ١٧).

(٣) الأجوبة الفاخرة (ص ٧٠).

ز- تقرير ما يريدون أن يصلوا إليه وجحد ما سواه.

ومن ذلك ما روي أن أبا الهذيل العلاف (ت ٢٢٥هـ) ناظر في حديثه يهودياً كان ينتهز فرصة إيمان المسلمين بنبوة موسى -عليه السلام-، ويتوقف عند ذلك الحد، معتبراً أن هذا اعتراف من المسلمين باليهودية دون أن يتطرق لنبوة سيدنا محمد ﷺ؛ لأن اعترافه بهذه النبوة سليزمه الاعتراف بالإسلام.

وهاك نص المناظرة: «قدم البصرة يهودي، فناظر بها ناساً، فقطعهم، فتقدم إليه شاب من المسلمين قال: فوجدت سبيله في المناظرة: أن يقرر المناظرين على نبوة موسى -عليه السلام-، فإذا أقروا، جحد نبوة محمد ﷺ، ويقول: نحن على ما اتفقنا عليه، إلى أن نتفق على غيره.

قال: فدنوت منه، فقلت: ما تقول؟

فقال: أخبرني، أليس موسى نبياً؟

فقلت: إن الذي سألتني عنه ينقسم إلى قسمين: أحدهما: أني أقر نبوة موسى الذي أخبر بنبوة محمد ﷺ وأمر باتباعه وبشر به، فإن سألتني عنه؛ فإني أقر به.

وإن سألتني عن موسى آخر لا يقر بنبوة محمد ﷺ ولا بشر به فليست أعرفه ولا أقر به، فانقطع اليهودي»^(١).

ومن الأمثلة على هذا أيضاً:

ما استدل به القس زكريا بطرس على عقيدته الثلاث من قوله تعالى: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ

(١) الجدل الإسلامي لأهل الكتاب (ص ٢٦) نقلاً عن عيون المناظرات للسكوني (ص ٢٢٠).

عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ
فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً ۚ أَنْتَهُمَا خَيْرٌ لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ
وَاحِدٌ ﴿[النساء: ١٧١]﴾.

يقول: رسول الله؛ أي: الله الموجود بذاته = الأب.

وكلمته؛ أي: ابن الله، والله ناطق بها = الابن.

وروح منه؛ أي: روح الله = الروح القدس ^(١).

فهو أخذ من الآية ما يناسب هواه وجحد ما سواه، وإلا فقله تعالى: ﴿وَلَا
تَقُولُوا ثَلَاثَةً ۚ أَنْتَهُمَا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ ييطل ما قرر.

ح- الهزء والسخرية:

من مسالك أهل الكتاب لكيد الدعوة الإسلامية، اتباعهم طريقة
الاستهزاء بالإسلام والتهكم بشعائره وعباداته، وقد فضح القرآن الكريم
مسلكهم هذا، ونهى المؤمنين عن موالاتهم ومصافاتهم، يقول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا
نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾
[المائدة: ٥٧، ٥٨] ^(٢).

يقول عبد الرحمن حَبَنَكَة - رحمه الله -: «والهزء والسخرية في الحقيقة أسلوب
من أساليب تغطية النقص، ومظهر من مظاهر التنفيس عن الحقد الدفين،

(١) المخرس (ص ١٠٤).

(٢) بنو إسرائيل في القرآن والسنة (ص ٢٤٠) وما بعدها.

والحسد الذي تتلظى نيرانه في القلوب، وتعبير عن الرغبة في الانتقام، والفتك متى تهيأ الظرف الملائم»^(١).

ومن أمثلة ذلك: استهزاء اليهود بأن الله تعالى طلب منهم قرصاً لفقره:

أخرج الإمام ابن جرير الطبري «عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: دخل أبو بكر رضي الله عنه بيت المدراس، فوجد يهوداً قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له: فنحاص اليهودي، كان من أحبارهم وعلمائهم، فقال أبو بكر: ويحك يا فنحاص، اتق الله وأسلم. فقال فنحاص: والله يا أبا بكر، ما بنا إلى الله تعالى من حاجة، وإنه إلينا لفقير، وما نتضرع إليه كما تضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، ولو كان غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم»^(٢).
وأيضاً:

لما ذكر الله تعالى الذباب والعنكبوت في كتابه، وضرب به مثلاً؛ ضحك يهود وقالوا: لو كان هذا كلاماً لله لما ذكر فيه الذباب والعنكبوت»^(٣).

والله أعلم



(١) مكاييد يهودية عبر التاريخ، عبد الرحمن حسن حَبَنَكَة (ص ٩٣)، دار القلم، بيروت، ط / السادسة، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.

(٢) يراجع: جامع البيان في تأويل القرآن (٧ / ٤٤١).

(٣) تفسير النسفي، لابن البركات النسفي (١ / ٣٥)، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، بدون تاريخ.

المطلب الرابع منهج الإمام القرافي في مناقشة أهل الكتاب

اختلفت مناقشة الإمام القرافي لليهود - من ناحية عدد القضايا المناقشة عنها بالنسبة للنصارى، فالإمام القرافي مع اليهود لم يتعرض لقضايا كثيرة - كما سيظهر من خلال البحث، ولكن مع النصارى أتى على جل ما يخصهم من كتب، وعقائد، وشعائر، وشبهات، وغير ذلك.

ولعل السبب في ذلك: أن صولة النصارى كانت في تلك الآونة أحدًا وأعنف من صولة اليهود، والذي يؤكد ذلك ما كان من كتابات لهم آنذاك يطعنون بها على الإسلام والمسلمين، وما صنيع الإمام القرطبي المحدث في كتابه «الإعلام»، والإمام القرافي في كتابه «الأجوبة الفاخرة» إلا ردًا عن كتابات لهم.

ولكن إن اختلفت المناقشة من حيث عدد القضايا، فقد اتفقت في المنهج، فالإمام القرافي في مناقشة اليهود والنصارى يسير على منهج واحد يمكن إجماله في النقاط الآتية:

١ - المطالبة بالدليل:

يطالب الإمام القرافي أهل الكتاب في أحيان كثيرة بالإتيان بدليل يثبت خلاف ما يقوله، أو يؤكد صحة ما يعتقدونه.

ومن ذلك قوله بعد أن ذكر أن التوراة كان مختصًا بها هارون - عليه السلام - وأبناؤه من بعده، وأن بني إسرائيل لم يعلمهم موسى - عليه السلام - من التوراة إلا نصف سورة، وأن الهارونيين لم يكونوا يعتقدون حفظ التوراة واجبًا عليهم يقول: «فإن كابروا في ذلك نطالبهم بنقل خلافه من التوراة فلا يجدونه»^(١).

(١) الأجوبة الفاخرة (ص ٧٨، ٧٩).

ومن ذلك قوله لما تكلم عن معمودية النصارى: «فلم قلت: إنه إذا عمد يحيى والحواريون نعمد نحن؟ فلعله مخصوص بهم، فما الدليل على أن ما فعلوه كان شرعاً عاماً؟»^(١).

ويقول في بيان انقطاع سند الأناجيل: «أما أنتم فليس في أناجيلكم رواية العدل عن العدل إلى مؤلف أناجيلكم، ولا صرح مؤلفو أناجيلكم بكلمة واحدة يقول فيها متى أو غيره: قال لي المسيح: إن الله أنزل عليه كذا... وهلموا إلى أناجيلكم تحكم بيننا وبينكم إن كنتم صادقين»^(٢)، ولا شك أن الإنسان إذا طوّل دليل يثبت صحة ما يعتقد، أو يبطل ما هو خلافه فعجز كان هذا تسليماً بإقامة الحجة عليه.

٢- الأقيسة:

يستخدم الإمام القرافي في مناقشة أهل الكتاب الأقيسة لما لها من أثر بالغ في النفوس.

ومن ذلك قوله في قياس الأولى: «في التوراة أن الله تعالى قد أبدل ذبح ولد إبراهيم بالكبش»^(٣)، وذلك أشد أنواع النسخ؛ لأنه نسخ قبل فعل شيء من نوع المأمور أو أفرادها، وإذا شهدت التوراة بأشد أنواع النسخ، فجواز غيره بطريق الأولى»^(٤).

ومن ذلك قوله: «والنصارى واليهود إنما يعتمدون على التوراة والإنجيل،

(١) الأجوبة الفاخرة (ص ١٥٥).

(٢) الأجوبة الفاخرة (ص ٩٨)، وينظر: (ص ٣١، ٤٢).

(٣) سفر التكوين: الإصحاح: (٢٢) الفقرات: (١٣، ١٤).

(٤) الأجوبة الفاخرة (ص ٦٠).

ولا يوجد يهودي ولا نصراني على وجه الأرض يروي التوراة عدلاً عن عدلٍ إلى موسى أو عيسى -عليهما السلام-، وإذا تعذرت عليهم رواية العدل عن العدل، فأولى أن يتعذر التواتر»^(١).

ويقول مستدلاً على جواز النسخ بدليل عقلي في صورة قياس حملي: «النسخ على وفق رعاية المصالح، ورعاية المصالح جائزة على الله تعالى ... فيكون النسخ جائزاً...»^(٢).

٣- التسليم:

في أحيان كثيرة يسلم الإمام القرافي لأهل الكتاب بالأمر، ثم يبين أن هذا التسليم لا ينفعهم، بل الحجة قائمة عليهم.

ومن ذلك قوله: «سلمنا أن الإمامة والإحياء أنفسهما كان يفعله عيسى -عليه السلام-، لكن قد شهد الإنجيل أن الحواريين كانوا يفعلون ذلك... فإن كان هذا يدل على الربوبية والإلهية، فليكن الحواريون كلهم... آلهة مساويين للمسيح -عليه السلام- في الإلهية، وجميع ما نسب إليه، ولما لم يقل بذلك أحد، دل على بطلان ما اعتمدوا عليه في إلهية عيسى -عليه السلام-»^(٣).

ومن ذلك قوله: «سلمنا أنه -الإنجيل- من قوله -عليه السلام- فيحتمل أن يكون من كلام الإنجيل ومن غيره، فلا يوثق بحرف واحدٍ عندكم أنه من الإنجيل المنزل»^(٤).

(١) الأجوبة الفاخرة (ص ٥٣).

(٢) الأجوبة الفاخرة (ص ٦١).

(٣) الأجوبة الفاخرة (ص ٦٥).

(٤) الأجوبة الفاخرة (ص ٩٨)، وينظر (ص ٥٣).

٤- فرض الأسئلة التي يمكن أن يعترض بها أهل الكتاب والإجابة عليها:

ومن ذلك قوله: «فإن قالوا: فقد كان النبيون -صلوات الله عليهم- يحكمون بها -بالتوراة- إلى زمن المسيح -عليه السلام-، وهم معصومون عن الباطل، وهذا يبطل جميع ما يذكره المسلمون، فإنهم وافقونا على حكم النبيين لقول القرآن: ﴿تَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

قلنا: الجواب من وجهين: ... إلخ^(١).

ومن ذلك أيضًا قوله: «فإن قلت: إذا كان المسموع هو الكلام النفسي فلا شيء قال الله تعالى: ﴿نُودِيَ مِنْ شَطِئِ الْأَوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوِسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ [القصص: ٣٠]... قلت: هذا سؤال قوي، وجوابه شريف، وهو ... إلخ^(٢).

٥- المقارنة بين أهل الكتاب والمسلمين:

يقارن الإمام القرافي في بعض الاستدلالات أو الردود على أهل الكتاب بين ما هم عليه، وما عليه المسلمون، وهذا المقارنة تؤكد صحة دين الإسلام، كما أنها تجعل المسلم يزداد إيمانًا، وقد تجعل الكافر يقف مع نفسه عندما تعرض له الصورتان، فلعله يرجع عن تقليد أعمى، أو تعصب بغيض، ومن ذلك لما تكلم عن الخلاص عند النصارى، وأنهم يقولون: إن عيسى -عليه السلام- نزل ليخلص البشر من شرك الخطيئة، وأنه في سبيل ذلك قبض عليه، وذاق الذل والهوان، ولم يجد له ناصرًا، ومات مصلوبًا مسمرة رجلاه ويده، ومع ذلك هو إله عندهم، يقول القرافي: «فأين هذا من قول المسلمين -الذين يجلون الله عن

(١) الأجوبة الفاخرة (ص ٨٦).

(٢) الأجوبة الفاخرة (ص ٩٣).

الاتصاف بصفات الأجسام، ويحيلون على جنبه الكريم، أن تناله الآفات والآلام- بعث عيسى نبياً مكرماً، ورفع له مجيداً معظماً، لم يهنه بأيدي الأعداء، ولا سلط عليه أسباب البلاء!»^(١).

ومن ذلك قوله بعد أن بين أن دين النصارى يأمرهم بالمسألة وعدم القتال، وأنهم يخالفون ذلك بالقتل والإفساد مع أن دينهم لا يأمرهم بذلك، ومع ذلك يعيبون على المسلمين الجهاد مع أنه مأمور به في القرآن الكريم، يقول القرافي: «وأما نحن وكتابنا، فنحن أولياء الله تعالى وأنصاره، وهم كفرته وأعداؤه، وكتابنا أوجب علينا القتال، ونص على أنه من أعظم القربات»^(٢).

٦- الإمام القرافي في رده على اليهود والنصارى يعتمد -في المقام الأول- على الكتب المقدسة عندهم.

٧- الإمام القرافي في ذكره الأدلة من كتب أهل الكتاب أحياناً يذكر نص الدليل -وذلك في الغالب- إذ كان الدليل مختصراً، وأحياناً يذكر الدليل بالمعنى، وذلك إذا كان ذكره يحتاج إلى نصوص طويلة.

٨- كما أنه في أحيان كثيرة يحدد موضع الدليل، فمثلاً يقول: «في السفر الأول من التوراة كذا، في إنجيل متى كذا، وفي أحيان أخرى لا يحدد موضع الشاهد، فيقول مثلاً: في التوراة كذا، في الإنجيل كذا».

٩- يذكر الإمام القرافي الشبهة ويفندها، ثم يذكر أدلة أخرى تبطل الشبهة، فتكون الأدلة كالوابل بعد الطل، أقوى في الإقناع، وألزم في الاقتناع.

(١) الأجوبة الفاخرة (ص ١٠٤).

(٢) الأجوبة الفاخرة (ص ٨٨، ٨٩)، وينظر: (ص ٧٦) وما بعدها (ص ١٥٥).

١٠ - توظيف اللغة في المناقشة:

يوظف الإمام القرافي اللغة العربية في مناقشة أهل الكتاب، وذلك عندما يكون سبب اللبس على أهل الكتاب راجعاً إلى أمر نحوي أو لغوي جهلوه، أو يكون النصارى قد اقتصروا على معنى واحد من عدة معانٍ تحملها اللفظة محل الدليل أو نحو ذلك.

ومن ذلك قوله في الجواب عن استدلال أهل الكتاب بأن المراد من قول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ الَّذِي كَتَبَ لِرَبِّ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢] هو الإنجيل: «اعتماداً على أن «ذلك» للبعيد: «وأما الإشارة بذلك التي اغتربها السائل، فاعلم أن للإشارة ثلاثة أحوال: ذا للقريب، وذلك للمتوسط، وذلك للبعيد، لكن البعد والقرب يكونان تارة بالزمان، وتارة بالمكان، وتارة بالشرف، وتارة بالاستحالة»^(١)، ثم طبق هذه الأوجه الأربعة على القرآن الكريم.

ومن ذلك قوله ردّاً على استدلال النصارى بما في القرآن الكريم من وصف عيسى -عليه السلام- بكونه روحاً وكلمة، على صحة قولهم بأن عيسى روح الله وكلمته اللذان هما طرفان في التثليث «الأب، الابن، الروح القدس»: «الروح: اسم للريح الذي بين الخافقين... واسم لجبريل -عليه السلام-، وهو المسمى بروح القدس، والروح: اسم للنفس المقومة للجسم الحيواني، والكلمة: اسم للفظ المفيدة من الأصوات، واسم للخبر من الكلام النفساني... وتطلق الكلمة على الحروف الدالة على اللفظة من الأصوات... وإذا كانت الروح والكلمة لهما معانٍ عديدة، فعلى أيها يحمل هذا اللفظ؟ وحمل النصرائي اللفظ على

(١) الأجوبة الفاخرة (ص ٢٠).

معتقده تحكم بمجرد الهوى»^(١).

١١ - الاستدلال بنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية.

ومن ذلك قوله ردًّا على ما جاء في التوراة من أن سليمان بن داود -عليهما السلام- ختم عمره بالكفر «كذبوا، قاتلهم الله، أنى يؤفكون، وصدق الله العظيم وكتابه الكريم: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ١٠٢]^(٢).

ومن ذلك قوله: «بل عظم القسيسون أنفسهم حتى جعلوا أنفسهم أعظم من الأنبياء، فحكموا في الشرائع وليس ذلك للأنبياء، وقالوا للعوام: إن غفران أحدنا لكم غفران الله، وحرمانه حرمان الله، وإن أعطينا القربان قبله الله، وإن لم نعطه لم يقبله الله... فعليهم لعنة الله ولعنة اللاعنين، بل الحق ما قاله رب العالمين: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُمْ فَلَمَّا يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلَّ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨]^(٣).

ومن ذلك قوله في رد ما جاء في تورااة اليهود من أن إبراهيم -عليه السلام- عندما حضرته الوفاة ورث ماله ولده إسحاق وحرّم سائر أولاده، «فكيف يجعل إبراهيم -عليه السلام- وهو خليل الرحمن هذا المؤلم خاتمة عمله عند حضور أجله، وأنت تعلم أيها المسلم المصدق بالرسالة المحمدية قوله -عليه السلام-: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا صدقة»^(٤)، فيجزم بكذب ما حكاه

(١) الأجوبة الفاخرة (ص ١٤)، وينظر أيضًا: (ص ٣١).

(٢) الأجوبة الفاخرة (ص ٨٧، ٨٨).

(٣) الأجوبة الفاخرة (ص ١٥٧).

(٤) أخرجه الإمام مسلم عن عمر بن الخطاب، ك: الجهاد والسير، باب: حكم النفي، حديث رقم (١٧٥٧)، (٣/ ١٣٧٥).

اليهود»^(١).

وإذا كان للإمام القرافي منهجه في الرد، فهل هو متأثر في ردوده بأحد سبق، أو هو أصيل في ذلك؟ وهل أثر في أحد جاء بعده أو لا؟ هذا ما ندع السطور القادمة تحييب عنه.

والله أعلم



(١) الأجوبة الفاخرة (ص ١٥٠).

المطلب الخامس القرافي بين التأثير والتأثر

أولاً: تأثير القرافي بمن سبقه:

لم يشر الإمام القرافي في رده على اليهود والنصارى -ولو مرة واحدة- إلى أنه أخذ من غيره، ولكن خلال البحث تبين لي أنه يأخذ من السابقين قبله، فهو يأخذ من السموأل، كما أنه يأخذ من أبي عبيدة الخزرجي، ويأخذ من القرطبي، وأكثر أخذه من أبي البقاء الجعفري، ومن قارن كتاب الأجوبة الفاخرة للقرافي، وكتاب تحجيل من حرف التوراة والإنجيل لأبي البقاء الجعفري، تبين له ذلك.

فمن أمثلة أخذ القرافي من السموأل:

١ - يقول السموأل في إثبات تحريف التوراة: «علمائهم وأحبارهم يعلمون أن هذه التوراة التي بأيديهم، لا يعتقد أحد من علمائهم وأحبارهم أنها المنزلة على موسى ألبتة؛ لأن موسى صان التوراة عن بني إسرائيل ولم يثبتها فيهم، وإنما سلمها إلى عشيرته أولاد ليوي... ولم يبذل موسى من التوراة لبني إسرائيل إلا نصف سورة يقال لها ها أزينو... ولم يكن حفظ التوراة فرضاً ولا سنة، بل كان كل واحد من الهارونيين يحفظ فصلاً من التوراة»^(١).

ويقول القرافي: «إن أحبار اليهود يعلمون علمًا يقينًا أن هذه التوراة ليست المنزلة على بني إسرائيل بعينها؛ بسبب أن موسى صان التوراة عن بني إسرائيل، ومنعها منهم، وخص بها... أولاد ليوي.. ولم يبذل موسى عليه السلام لبني إسرائيل إلا نصف سورة يقال لها ها أزينو... ثم إن الهارونيين الذين خصوا

(١) بذل المجهود في إفحام اليهود، للسموأل بن يحيى المغربي (ص ١٣٥) وما بعدها، ت/ د. محمد عبد الله الشرقاوي، دار الجليل، بيروت، ط/ الثالثة، ١٩٩٠ م.

بالتوراة لم يكونوا يعتقدون أن حفظها واجب ولا سنة»^(١).

٢- يقول السموأل في رده على اليهود في إنكارهم نبوة عيسى عليه السلام: «أليس في التوراة التي في أيديكم... (لا يزال الملك من آل يهوذا، والراسم بين ظهرانيهم إلى أن يأتي المسيح)^(٢)، ولا يقدرّون على جحده، أفما علمتم أنكم كنتم أصحاب دولة، وملك إلى ظهور المسيح عليه السلام، ثم انفض ملككم؟ فإن لم يكن لكم اليوم ملك، فقد لزمكم من التوراة أن المسيح قد أرسل»^(٣).

ويقول القرافي: «إن نص التوراة يقتضي نبوته عليه السلام، وهو أن فيها.. لا يزال الملك من آل يهوذا، والراسم بين ظهرانيهم إلى أن يأتي المسيح وكذلك كان، ما زالت لهم ملوك ودول إلى زمن المسيح عليه السلام، ثم صاروا ذمية محقّرة، ورعية مأسورة، وهذا شيء لا ينكرونه، وهو دليل قاطع على نبوته عليه السلام»^(٤).

ومن أمثلة أخذه من أبي عبيدة الخزرجي:

١- يقول أبو عبيدة الخزرجي في بيان أن التوراة -الموجودة في وقته- أصابها التبديل والتحريف: «واليهود تقر أن السبعين كاهناً، اجتمعوا على اتفاق من جميعهم في تبديل ثلاثة عشر حرفاً من التوراة، وذلك بعد المسيح... ومن رضي تحريف موضع في كتاب الله، فلا يؤمن منه تحريف الكثير»^(٥).

(١) الأجوبة الفاخرة: (ص ٧٨).

(٢) لم أجد هذا النص في التوراة التي تحت يدي بنسختها البابلية والسامرية، ولم أجد أيضاً في قاموس الكتاب المقدس.

(٣) بذل المجهود: (ص ١٠٢).

(٤) الأجوبة الفاخرة (ص ٧١).

(٥) بين الإسلام والمسيحية (ص ٢٩٠).

ويقول القرافي: «إن اليهود تعترف بأن سبعين كاهناً، اجتمعوا على تبديل ثلاثة عشر حرفاً من التوراة بعد المسيح عليه السلام... ومن اجترأ على تبديل حرف من كتب الله تعالى، وتحريفه، لا يوثق به فيما يدعي أنه كتاب الله تعالى؛ إذ لعله مما حرفه»^(١).

٢- يقول الخزرجي: «وكذلك يقرون أن السامرية -وهي فرقة منهم- حرفت التوراة تحريفاً بيناً، والسامرية يدعون عليهم مثل ذلك من التحريف، ولعل الفريقين صادقان، فأين حينئذ في التوراة شيء يوثق به؟»^(٢).

ويقول القرافي: «طائفة من اليهود يقال لهم: السامرية، اتفق اليهود على أنهم حرفوا التوراة تحريفاً شديداً، والسامرية يدعون عليهم مثل ذلك التحريف، ولعل الفريقين صادقان، فأين حينئذ في التوراة شيء يوثق به؟»^(٣).

ومن أمثلة أخذه عن القرطبي:

١- يقول أبو العباس القرطبي مصوراً مذهب النصارى في تركهم الختان: «وقد وجدت في كتبهم الفقهية: أنهم قالوا في تأويل حكم الختان قولاً أتوا فيه على التوراة بالباطل والبهتان، قالوا: إنما عنى بالختان: نقاوة القلوب، وصفاء النية، وذهاب الغلوفة... ولذلك علمنا أن الله استقذر غلوفة القلب، وليس غلوفة اللحم، فما على الإنسان أن يَحْتَن لحمه، إذ لا منفعة له في ذلك، فمن شاء اختتن، ومن شاء ترك، والأحسن: أن تترك الأجساد تامة غير ناقصة كما خلقنا

(١) الأجوبة الفاخرة: (ص ٨٦).

(٢) بين الإسلام والمسيحية: (ص ٢٩٠).

(٣) الأجوبة الفاخرة: (ص ٨٦) ويقارن: بين الإسلام والمسيحية: (ص ١٩١، ١٩٩)،

الأجوبة الفاخرة: (ص ٢٧، ٥٤).

الله عز وجل»^(١).

ويقول القرافي: «وقد وقع في كتبهم الفقهية تأويل للختان، التزموا فيه على التوراة بالباطل والبهتان، فقالوا: المراد بالختان في التوراة نقاوة القلوب وصفاء النية بذهاب غلوفة القلب...، وأما غلوفة اللحم، فلا مضرة فيها، بل الأحسن ترك الأجسام، كما خلقها الله تعالى»^(٢).

٢- يقول الإمام القرطبي في رده على النصارى قولهم: إن الختان لا فائدة فيه: «إنهم سفهوا أحكام الله ورسل الله، حيث قالوا: لا منفعة في ذلك، مع أن الله قد حكم به، وشرعه، وبلغ ذلك أنبياءه ورسله»^(٣).

ويقول القرافي: «إنهم سفهوا أحكام الله ورسل الله، حيث قالوا: لا منفعة في ذلك، مع أن الله قد حكم به، وبلغته رسوله وعملوا به»^(٤).

٣- يقول القرطبي: «اعلم أن هؤلاء القوم وضعوا لأنفسهم قوانين.. من غير أن يشهد بصحة تلك القوانين شاهد من تورا، ولا من إنجيل، فمن خالفها عندهم سموه خارجاً تارة، وكافراً أخرى، والخروج عن تلك الذنوب هو الذنب عندهم، ثم تلك الذنوب منقسمة إلى ما يغفرونه، وإلى ما لا يغفرونه»^(٥).

ويقول القرافي: «وضعت النصارى لأنفسهم قوانين من غير دليل من التوراة والإنجيل، ومن خالفها سموه خارجاً تارة، وكافراً أخرى، والخروج عن

(١) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام: (ص ٤٢٠).

(٢) الأجوبة الفاخرة: (ص ١٢٤).

(٣) الإعلام: (ص ٤٢١).

(٤) الأجوبة الفاخرة: (ص ١٢٥).

(٥) الإعلام: (ص ٤٠٥).

قوانينهم ذنوب، وتنقسم إلى ما لا يغفرونه، وإلى ما يستقلون بغفرانه»^(١).

ومن أمثلة أخذه عن أبي البقاء الجعفري:

١- يقول أبو البقاء الجعفري: «فقد قال النبي إشعياء في نبوته: يا معشر العطاش الجياع توجهوا إلى الماء المورد، ومن ليس له فضة فليذهب يمتار ويستقي ويأكل ويتزود من الخمر واللبن بلا فضة ولا ثمن»^(٢) قلت: وذلك موافق لقول الله تعالى: ﴿فِيهَا أَنْهَرُ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَرُ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَرُ مِنْ خَمَرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَرُ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [محمد: ١٥]^(٣).

ويقول القرافي: «في نبوة إشعياء عليه السلام: يا معاشر العطاش الجياع، توجهوا إلى الماء المورد، ومن ليس له فضة فليذهب يستقي، ويأكل، ويتزود من الخمر واللبن، موافقة لقوله تعالى في القرآن الكريم: ﴿فِيهَا أَنْهَرُ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَرُ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَرُ مِنْ خَمَرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَرُ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [محمد: ١٥]^(٤).

٢- يقول الجعفري: «ذكر يوحنا -الذي هو أصغر الأربعة سنًا- (أن أول آية أظهرها المسيح تحويل الماء خمرًا)^(٥) ولم يذكر أصحابه الثلاثة ذلك، وإن

(١) الأجوبة الفاخرة: (ص ١٥٥-١٥٦).

(٢) سفر إشعياء: الإصحاح (٥٥) الفقرة (١).

(٣) تخريل من حرف التوراة والإنجيل، لأبي البقاء الجعفري: (١/ ٢١٥) رسالة دكتوراة منشورة، دراسة وتحقيق، د/ محمود عبد الرحمن قده، مكتبة العبيكان، الرياض، ط/ الأولى، ١٤١٩هـ.

(٤) الأجوبة الفاخرة: (ص ٧٦).

(٥) إنجيل يوحنا: الإصحاح (٢) الفقرات: (١-١١).

أغفلوا مثل هذه الآية مع شهرتها دل ذلك على غفلة عظيمة وقلة اعتناء بأمر الدين، وإذا كانت لم تصح عندهم، فتخرجوا من تسطيرها، فكيف ثبتت من الإنجيل بقول واحد، وشرط ثبوت كلام الله التواتر؟^(١).

ويقول القرافي: «قال يوحنا -وهو أصغر الأربعة- إن أول آية أظهرها المسيح عليه السلام تحويل الماء خمرًا، ولم يذكرها الثلاثة، وإذا أغفلوا مثل هذا كانوا متهاونين بالدين، وإن كانت لم تصح عندهم، فكيف ينقل الدين عن شخص واحد، وشرط ثبوت أصل الأديان التواتر؟»^(٢).

لكن الإمام القرافي وإن أخذ عمن سبقه، فإنه في أحيان كثيرة، لم يكن يأخذ بدون أن يضيف فائدة، أو زيادة لم يذكرها من أخذ عنه الإمام القرافي، تلك الزيادة التي تحفظ للقرافي شخصيته، وتثبت أنه لم يكن كحاطب ليل، في أخذه من غيره، كما أن القرافي في نقله عن غيره يبسط ما يحتاج إلى بسط، ويوضح ما فيه غموض ومن أمثلة ذلك:

١- ذكر الإمام القرطبي للختان فوائد أربعة:

- أنه عبادة في بدن الإنسان، إذا فعلها أثيب، وإن تركها عوقب.

- أن تركه لا يمكن معه المبالغة في النظافة.

- أنه ألد عند الجماع، وأسرع لمجيء شهوة الوقاع.

- أن خروج الماء الدافق مع الختان يكون أشد، مما يجعله يصل إلى محل

(١) تحجيل من حرف التوراة والإنجيل (١/٢٨٩، ٢٩٠).

(٢) الأجوبة الفاخرة: (ص ٢٣، ٢٤)، ويقارن: تحجيل من حرف التوراة والإنجيل

(١/١٢٠، ١٢٢، ١٣٢، ٤٨٦-٤٩٢، ٢/٦٥٢)، بالأجوبة الفاخرة: (ص ٦٥، ٦٦،

٦٧، ١٠٩، ١١٠، ١٦٣) ويراعى ترتيب الصفحات في الكتاين.

التخليق، فيحصل الولد، بخلاف لو كان غير مختون^(١).

وهذه الأوجه الأربعة ذكرها الإمام القرافي بعبارة فيها إفصاح وبيان عما ذكره القرطبي، وزاد للختان فائدة أخرى لم يذكرها القرطبي وهي:

أن أوامر الله تعالى وطاعته خلغ إحسان، وأياد امتنان، وكلها تذهب بالفراغ من ملابستها، ولا يبقى لها أثر في الوجود إلا الختان، فإنه يبقى مخلدًا في الجسد إلى الممات، يقول القرافي: «وهذه خصيصة عظيمة دالة ما بقي الإنسان على توجه الأمر الرباني عليه، وأنه حاز شرف الإنابة، والطاعة لديه... إلخ»^(٢).

٢- يقول أبو البقاء الجعفري: «ذكر متى (أن يوسف خطيب مريم كان أبوه يسمى يعقوب بن ماثان)^(٣) وذكر لوقا غير ذلك فقال: (أقام يسوع ثلاثين سنة وهو يظن أنه ابن يوسف بن هالي)^(٤) يقول أبو البقاء: وهذا تناقض عجيب»^(٥).

ويقول القرافي بعد أن ذكر قول متى، وقول لوقا: «وهو تكاذب» ثم أضاف: ثم إن قضية عيسى عليه السلام في كونه ولد من غير أب كانت في غاية الشهرة عند بني إسرائيل، حتى آذوا مريم عليها السلام إيذاءً عظيمًا، برميها بالزنا ووصلت القضية إلى أقطار الأرض، فكيف يخفى على عيسى عليه السلام ذلك ثلاثين سنة؟^(٦).

وإضافات القرافي كثيرة غير هذين الموضعين، سيأتي لها مزيد بيان في ثنايا

(١) يراجع: الإعلام (ص ٤٢١).

(٢) الأجوبة الفاخرة: (ص ١٢٥).

(٣) إنجيل متى: الإصحاح (١) الفقرة: (١٦).

(٤) إنجيل لوقا: الإصحاح (٣) الفقرة (٢٣).

(٥) تحجيل من حرف التوراة والإنجيل: (١/ ٢٩٣).

(٦) الأجوبة الفاخرة: (ص ٢٤).

الحديث عن جهود الشيخ.

ولا يمنع أخذ القرافي عن غيره، أن تكون له جهود لم يسبق إليها، ستتضح من خلال البحث إن شاء الله تعالى.

ثانيًا: تأثير القرافي فيمن بعده:

تأثر القرافي من اللاحقين عدد لا بأس به من عمد علماء الأديان، ومن هؤلاء ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، والألوسي بن الألوسي المفسر، والباجي زاده -رحم الله الجميع- وهؤلاء ينقسمون إلى قسمين: فمنهم من يصرح بالأخذ عن القرافي، وهو الألوسي والباجي زاده، ومنهم من لا يصرح مثل ابن تيمية وابن القيم.

ومن أمثلة أخذ ابن تيمية عنه:

يقول الإمام القرافي: «قال إشعياء: قيل لي: قم ناظرًا، فانظر ماذا ترى، فقلت: أرى راكبين مقبلين: أحدهما على حمار، والآخر على جمل، يقول أحدهما لصاحبه: تسقط بابل وأصنامها للمنحر^(١) -يقول: - فراكب الحمار المسيح عليه السلام، وراكب الجمل محمد عليه السلام، فشهرته بركوب الجمل أكثر من شهرة المسيح عليه السلام بركوب الحمار، ومحمد عليه السلام أسقط أصنام بابل، وغيرها»^(٢).

ويقول ابن تيمية بعد ذكر بشارة إشعياء: «فراكب الحمار هو المسيح، وراكب الجمل هو محمد ﷺ، وهو أشهر بركوب الجمل من المسيح بركوب الحمار،

(١) سفر إشعياء: الإصحاح (٢٠) الفقرات (٦-١٠).

(٢) الأجوبة الفاخرة (ص ١٧٢).

وبمحمد ﷺ سقطت أصنام بابل»^(١).

ومن أمثلة أخذ ابن القيم عنه:

١- يقول القرافي في بيان أثر استيلاء الأمم على بني إسرائيل في ضياع التوراة: «وما زالت الأمم التي استولت عليهم كالشدايين^(٢) والبابليين^(٣) والفرس، واليونان، والنصارى، يقصدونهم أشد قصد، ويطلبون استئصالهم، وخراب بلادهم وحرق كتبهم، حتى جاء الإسلام»^(٤).

ويقول ابن القيم: «... ولكثرة الأمم التي استولت عليهم من الكلدانيين والبابليين، والفرس، واليونان، والنصارى... وما من هذه الأمم إلا من طلب استئصالهم، وبالع في إحراق بلادهم وكتبهم...»^(٥).

٢- يقول الإمام القرافي في رده على النصارى دعوى صلب المسيح عليه السلام: «من المدبر للسموات والأرض بالبطش والقبض، والرفع والخفض؟ وهل دفنت الكلمة بدفنه وقتلت بقتله، أم خذلت وهربت مع التلاميذ؟ فإن دفنت فإن القبر الذي وسع الكلمة لقبر عظيم، وإن أسلمته وذهبت، فكيف

(١) الجواب الصحيح: (٣/٢٦١).

(٢) لم أصل إلى معرفتهم في كتب البلدان والأنساب، ولعلمهم الكلدانيون، بدليل عبارة ابن القيم؛ لأنه ذكر نفس كلام الإمام القرافي، وذكر مكان الشدايين، الكلدانيين، والكلدانيون: هم الذين سكنوا بابل في الزمن الأول. معجم البلدان (١/٣٠٩).

(٣) البابليون: سكان أهل بابل، وبابل مدينة بالعراق، تضم مدنا عدة، منها الكوفة، كان عرضها اثني عشر، فرسخًا، وطولها مثل ذلك، لم تزل عامرة حتى خربها الإسكندر: يراجع معجم ما استعجم (١/٢١٨)، معجم البلدان (١/٣٠٩، ٣١٠).

(٤) الأجوبة الفاخرة: (ص٧٩).

(٥) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، لابن القيم: (٦٦٩)، ت/ محمد عبد القادر عطا، مكتبة التقوى، القاهرة، ط/ الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

أمكنك المفارقة بعد الاتحاد والامتزاج؟»^(١).

ويقول ابن القيم: «من كان يدبر أمر السموات والأرض؟ ... ويا عجباً: هل دفنت الكلمة معه، بعد أن قتلت وصلبت؟ أم فارقتها، وخذلتها أحوج ما كان إلى نصرها؟ ... وكيف يصح مفارقتها له بعد أن اتحدت به، ومازجت لحمه ودمه؟ ... ويا عجباً أي قبر يسع إله السموات والأرض؟»^(٢).

ومن أمثلة أخذ الألوسي عنه:

قوله في بيان ما فعله بولس في النصرانية: «فاسمع شرح حاله مما قاله العلامة القرافي في الأجوبة الفاخرة بما لفظه...»^(٣).

ويقول في الرد على إنكار النصارى للختان: «قال القرافي... فانظر كذبهم على الله تعالى»^(٤) وتصريح الباجي زاده بالأخذ عن القرافي كثير في الجواب الفسيح.

ومن أمثلة أخذ الباجي زاده عن القرافي:

١ - قال القرافي في بيان تناقض الأنجيل: «قال لوقا: (قال جبريل الملك لمريم بناصرة: إنك ستلدين ولدًا اسمه يسوع، يجلسه الرب على كرسي أبيه داود، ويملكه على بيت يعقوب)^(٥) يقول القرافي: وكذبه يوحنا وغيره، فقال: بل حمل

(١) الأجوبة الفاخرة: (ص ١٠٨، ١٠٩).

(٢) إغاثة اللفهان: (ص ٦١٨، ٦١٩)، ويقارن: الأجوبة الفاخرة: (ص ٧١)، وإغاثة اللفهان: (ص ٦٥٨).

(٣) الجواب الفسيح لما لفظه عبد المسيح، للألوسي: (٢/ ٣٣١) وما بعدها، ت/ د. أحمد حجازي السقا، دار البيان العربي، القاهرة، ط/ الأولى، ١٤٠٨هـ.

(٤) الجواب الفسيح: (٢/ ٣٣٥)، وينظر: (٢/ ٧٤٨-٧٥٤، ١/ ٥٨٧).

(٥) إنجيل لوقا: الإصحاح (١) الفقرات: (٣١-٣٤).

يسوع - هذا الذي وعده الله بالملك - إلى القائد بيلاطس^(١)، وقد ألبسه شهرة الثياب، وتوجه بتاج من الشوك، وصفعوه، وسخروا منه، وفاوضه بيلاطس طويلاً، فلم يتكلم^(٢) يقول القرافي وهو تناقض فاحش: أحدهما يجعل يسوع عليه السلام ملكاً عظيماً لبني إسرائيل، والآخر يصفه بهذه الذلة والمهانة...^(٣).

يقول الباجي زاده بعد أن ذكر ما ذكره لوقا ويوحنا بعبارات قريبة جداً من عبارة القرافي: «وهذا لا شك فيه تناقض فاحش، فإن إنجيلاً يجعله ملكاً عظيماً لبني إسرائيل، وآخر يصفه بهذه الذلة والمهانة...»^(٤).

٢- قال القرافي: «قال لوقا: (لما نزل بيسوع عليه السلام الجزع من اليهود، ظهر له ملك من السماء ليقويه، وكان يصلي متواتراً، وصار عرقه كعبيط الدم)^(٥) يقول القرافي: ولم يذكر ذلك متى، ولا مرقس، ولا يوحنا، وإذا تركوا ذلك، لم يؤمن أن يتركوا ما هو أهم منه الفرائض والأحكام، وإن كان الترك صحيحاً، فتكون الزيادة كذباً في النسخ الأخرى»^(٦).

ويقول الباجي زاده بعد أن ذكر قول لوقا: «ولم يذكر ذلك متى ولا مرقس

(١) سادس وال على اليهودية من قبل طيباروس قيصر، وهو القائد الروماني الذي تمت عملية الصلب في وقته، تولى ست سنين قبل حادثة الصلب، وأربعاً بعدها، يراجع: الكنز الجليل في تفسير الإنجيل، د/ وليم إدي، مجمع الكنائس في الشرق الأدنى، بيروت، ط/ ١٩٧٣ م.

(٢) إنجيل يوحنا: الإصحاح (١٩) الفقرات: (١-١٠).

(٣) الأجوبة الفاخرة: (ص ٢٣).

(٤) الفارق بين المخلوق والخالق، للباجي زاده: (ص ١٣) تصحيح ومراجعة: عبد المنعم فرج درويش، مطابع البيان التجارية، دبي، ط/ ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م.

(٥) إنجيل لوقا: الإصحاح (٢٢) الفقرات (٤٣-٤٥).

(٦) الأجوبة الفاخرة: (ص ٢٣).

ولا يوحنا، فإذا تركوا ذلك لا يؤمن أن يتركوا ما هو الأهم من ذكر الأحكام، وإن كان الترك صحيحاً فتكون الزيادة كذباً محضاً^(١).

ويقول الباجي زاده معقباً على قول بعض النصارى في زمانه: إن المسلمين لم يأت أحد منهم ببرهان يبطل حجية الأناجيل، ويمنع التمسك بها: «أيظن أن الناس عميان؟ أو اعتراهم داء النسيان من كتب الردود كابن تيمية، والقرافي...؟»^(٢).

ولا شك أن كلامه هذا فيه إشارة إلى أنه رجع إلى القرافي وأخذ عنه: وإذا أضيفت الإشارة إلى النقلين السابقين انتقل الحال من الإشارة إلى التصريح.
وبعد،،،

فقد استبان مما سبق أن الإمام القرافي رحمه الله تعالى، تأثر بمن سبقه من العلماء، وأثر فيمن جاء بعده، وتلك سنة الله أن المرء يتأثر، ويؤثر، وما ذكر من أمثلة تبين تأثر القرافي وتأثيره، إنما قصد به الإشارة، وليس الاستقصاء، وأما الاستقصاء لهذه الجزئية فهو منشور بين ثنايا بقية البحث، وندع الصفحات القادمة تخبرنا عن ذلك شيئاً فشيئاً.

والله المستعان

(١) الفارق بين المخلوق والخالق: (ص١٣)، ويقارن الأجوبة الفاخرة: (ص٢٤، ٥٤) بالفارق بين المخلوق والخالق: (ص١٤، ٢٨٧).

(٢) ذيل الفارق للباجي زاده: (ص٢٩) مطبوع نفس طبعة الفارق السابقة.